الفصل الأول

وحدة السياق في سورة القيامة

obeikan.com

obeikan.com

المتأمل فى سياق سورة القيامـة يثور فى ذهنه ذلك التساؤل الذى طرحه غير واحد من المفسرين عن وجه تضـمنه لتلك الآيات الأربع التى توجه فيها النهى إلي الرسول ﷺ كيلا يحرك لسانه عند تلقى الوحى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ تلـك الآيات التى تبدو وكأنها تقطع اطراد هذا السياق وتخـرج عن مسار وحداته التى أمحضت من أول السورة إلى آخـرها ـ قبل هذا النهى وبـعده ـ للإخبـار عن يوم القيـامة؛ تأكيدًا لحقيقته، ووصفًا لبعض أحواله ودحضًا لمماراة الممترين فيه!!

لقد ادعى بعض قدماء الروافض أنه ليس ثمة مناسـبة بين تلك الآيات وسياق السورة، ورجحـوا بالتالى أن يكون قد سقط من تلك السورة شيء محتجين بذلك لما زعموه من أن القرآن قـد غير في ترتيبه وبدِّل ، وزيد فيه ونقص عنه [1].

وذهب القفال إلى أن الخطاب فى تلك الآيات ليس للرسول ﷺ، بل هو خطاب للإنسـان المذكور قبل تلك الآيات فى قوله سبحانه: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ ، والمعنى المراد هو أن ذلك الإنسان حين يعرض عليه كتابه يوم القيامة يسرع فى قراءته ويتلجلج خوفًـا، فيقال له: لا تحرك به لسانك لتعجل به، إنَّ علينا أن نجمع عملك، وأن نقرأه عليك، فـإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت، ثم إن علينا بيان أمر هذا الإنسان وما يتعلق بعقوبته[2].

والواقع أن هذا الرأى أورده القـفال فـى تأويل تلك الآيات لا يقل تعسفًـا وبعدا عن القبول عمـا ادعاه بصددها الروافض. فإذا كان مـا زعمه هؤلاء يخـالف ما أجـمع عليـه أئمة السلف من أن تـرتيب الآيات فى سور القـرآن هو بتوقيف من الله عـز وجل (وهو ما يعنى أن ثمة حكمًا وأسـرارًا وراء هذا الترتيب

---

(١) انظر : التفسير الكبير (جـ ٣٠ / ٢٢).

(٢) الإتقان فى علوم القرآن (جـ٢/ ١١٠).

فى كل سورة على حدة)[1] فإن ما ذهب إليه القفال يخالف ما وردت به الأحاديث الصحيحة في سبب نزول تلك الآيات، والتى منها على سبيل المثال ما رواه سعيد ابن جبير، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: «**كان النبى ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحى كان يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه فكان يعرف ذلك فيه فأنزل الله هذه الآية فى لا أقسم بيوم القيامة: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ﴾**»[2]!!

أما المفسرون الذين حاولوا الكشف عن وجه مناسبة هذه الآيات لسياق السورة فقد تمخضت محاولاتهم عن عدة آراء نجملها فيما يلى:

١ ـ أن الاستعجال المنهى عنه فى تلك الآيات قد اتفق للرسول ﷺ عند تلقيه للآيات السابقة عليها، ومن ثم نهى عن ذلك الاستعجال فى هذا الوقت، ثم عاد الكلام بعد ذلك إلى تكملة ما ابتدئ به، وذلك كما أن المدرس إذا كان يلقى على تلميذه شيئًا فأخذ التلميذ يلتفت يمينًا وشمالاً فيقول المدرس له: لا تلتفت يمينًا وشمالاً ثم يعود إلي تكملة الدرس، فإذا نقل ذلك الدرس، ونقل هذا النهى فى أثنائه فإن من لم يعرف السبب يظن أن وقوع النهى فيه غير مناسب، أما من عرف ذلك فإنه يدرك وجه مناسبته.

٢ ـ أن النهى عن هذا الاستعجال قد وقع بين حبى العاجلة: حبها الذى تضمنه قوله سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ ﴾ تلويحًا، وحبها الذى آذن به قوله: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ تصريحًا، وفى توسطه بين هذين الحبين تدرج ومبالغة فى التقريع، إذ هو يدل على أن العجلة إذا لم تجز فى القرآن وهو شفاء ورحمة فإنها لا تجوز من باب

---

(١) لقد قيل فى ذلك: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط» ، انظر: البرهان في علوم القرآن (جـ١/ ٣٦).

(٢) انظر فى تلك الأحاديث : صحيح البخارى بحاشية السندى (جـ٣/ ٢١٠) ، وكذا تفسير الطبرى (جـ ١٠/ ١١٧).

أولى فيما هو فجور وثبور. . فهذا النهى إذن هو استطراد يؤدى في موقعه مؤدى الاعتراض وأبلغ.

٣ ـ أن هذا النهى يرتبط بالآيتين السابقتين عليه : ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ فكأنه سبحانه يقول لنبيه ﷺ : إذا كان غرضك من هذا التعجيل أن تعرفهم قبح ما هم عليه ، فإن هذه المعرفة حاصلة عندهم، فلم يبق إذن لهذه العجلة فائدة!!

٤ ـ أنه يرتبط بقوله سبحانه : ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾، فكأنه عز وجل يقول لنبيه ﷺ: «إن الكافر يفر من الله تعالى إلي غيره، وأما أنت فكن كالمضاد له فيجب أن تفر من غير الله إلى الله، فلا تستعن فى طلب الحفظ بالتكرار، بل اطلبه من الله تعالى».

٥ ـ أن النفس لما تقدم ذكرها فى أول السورة: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ عدل فى تلك الآيات إلي ذكر نفس المصطفى ﷺ على سبيل المقارنة، فكأنه قيل: هذا شأن النفوس، وأنت يا محمد نفسك أشرف النفوس فلتأخذ بأكمل الأحوال[1].

ولعلنا نلاحظ أن هذه الآراء ـ على كثرتها ـ لم تجب إجابة شافية عن التساؤل المطروح حول وجه المناسبة بين هذا النهى وسياق السورة. أما الأول (وهو ما ردده كثير من المفسرين) فلأنه لا يعدو أن يكون بيانًا لسبب نزول الآيات، الأمر الذى يظل التساؤل معه واردًا عن وجه ارتباطها المعنوى ـ مع نزولها لهذا السبب ـ بما سبقها وما لحق بها من آيات فى سياق السورة، فآيات هذا الذكر الحكيم ـ كما قيل بحق ـ هى بحسب الوقائع المتفرقة نزولاً، وبحسب الحكمة فى سياقاتها ترتيب[2]، وأما بقية الآراء فلأنها (فضلاً عما فى كثير منها من تعسف كما أشار

---

(١) انظر فى هذه الآراء : الإتقان في علوم القرآن: (جـ٢/ ١١٠ـ١١١) ، والتفسير الكبير: (جـ٣/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) ، وروح المعانى : (جـ ٢٩/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن : (جـ١/ ٣٧).

الحافظ ابن حجر[1]) لم تتمخض إلا عن مناسبات جزئية ترتبط الآيات الأربع في ظل كل منها بآية بعينها أو بعنصر بذاته من عناصر السياق فى تلك السورة الكريمة، أى أن واحداً من هذه الآراء لم ينظر إلى هذا السياق بوصفه برمته وحدة كلية تتآزر جزئياتها وتتضافر عناصرها ـ بما فيها النهى عن العجلة ـ فى تأدية غرض واحد!!

وبداية نود الإشارة إلى أن هذا النهى لم يرد فى القرآن الكريم إلا فى موضع آخر خلاف هذا الموضع، وهو قوله جل شأنه فى سورة طه : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[2] [طه: ١١٤].

وبتأمل السياق الذى وردت عقبه تلك الآية يتبين لنا أنه يتشابه إلى حد كبير مع طبيعة السياق فى السورة التى نحن بصددها من حيث دورانه حول يوم القيامة ووصفه لبعض مشاهده، وإخباره عن حقيقة المصير المحتوم لكل من المؤمنين به والمارين فيه : ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

---

(١) انظر : فتح البارى : (جـ٨/ ٥٤٩).

(٢) يلفت النظر أن النهى فى تلك الآية لا يتعلق بتحريك اللسان من أجل العجلة بالقرآن ـ كما فى آية القيامة ـ بل يتعلق بهذه العجلة ذاتها، ولعل السر فى هذه المخالفة يرجع إلي ما ذكره ابن عباس فى الحديث المروى عنه فى سبب نزول هذا النهى في سورة القيامة حيث قال: «. . . فكان إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه كما قرأه» (انظر : فتح البارى جـ١/ ٣٩) فمغزى ما ذكره ابن عباس أن النبى ﷺ كان قد توقف عن تحريك لسانه بالقرآن (وإن بقيت عادة التعجل لديه) مند نزول سورة القيامة السابقة على سورة طه فى ترتيب النزول.

خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه : ١٠٢ ـ ١١٤].

إن دوران السياق حول يوم القيامة في هذين الموضعين اللذين ورد فيهما النهى عن التعجل بالقرآن ليشعر بأنه قد كانت هناك «علاقة ما» بين الأمرين فى نفس المصطفى ﷺ ، ولعل هذه العلاقة ـ والله أعلم ـ أن مراء الممترين من مشركى قومه فى هذا اليوم قد كان من أقوى الأسباب أو المثيرات التى تدفعه إلى هذا التعجل ، **ولعل مما يوضح هذه العلاقة** أن هؤلاء المشركين كثيراً ما كانوا يلجئون فى ثنايا هذا المراء وإمعانًا فيه إلى تعجل هذا اليوم، وهذا ما أخبرت عنه آيات كثيرة ، منها على سبيل المثال قوله سبحانه : ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون﴾ [يونس :٥١] ، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى : ١٧ـ ١٨] .

فكأن تعجله بالقرآن قد كان بمثابة رد فعل لتعجلهم لهذا اليوم الذى يمترون فيه، تشوفًا منه إلي مزيد من الوحى السماوى لعله يتلقى ما يدعمه فى استئصال بواعث هذا المراء من نفوسهم أو يبشره باقتراب معاجلتهم بما يتعجلونه[1].

---

(١) لقد اختلف رواة الحديث فى بيان السبب في تعجله ﷺ بالقرآن، فلقد قيل: إنه بسبب رغبته فى زوال المشقة التى كان يعانيها عند نزوله، وقيل كذلك : إنه بسبب خشيته أن ينساه ، وقيل أيضًا: إنه بسبب حبه إياه ، وقد أشار الحافظ ابن حجر إلي إمكانية الجمع بين هذه الأسباب قائلاً: «لا بعد في تعدد السبب»، انظر: فتح البارى (جـ٨/ ٥٥٠) ، والأمر الذى تعنينا الإشارة إليه هنا هو أن هذه الأسباب مجتمعة لا تنفى السبب الذى نحن بصدد إثباته والذى يستطيع ـ دونها ـ الإجابة عن تساؤل مؤداه: لماذا لم يرد النهى عن هذا التعجيل فى القرآن إلا فى هذين الموضعين الذي جاء فيهما مقترنا بذكر يوم القيامة؟

ولعل ما يدعم هذه العلاقة كذلك أن النبى ﷺ لم ينه عن التعجل إلا فى أربعة مواضع من القرآن الكريم جاء فى موضعين منها متعلقًا بالقرآن وهما الموضعان السابقان : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القيامة: ١٦] ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه: ١١٤].

وجاء في الموضوعين الآخرين متعلقًا بمصير هؤلاء المارين في يوم القيامة، ومقترنا فى الوقت ذاته بما يطمئنه ﷺ ـ كيلا يتعجل ـ إلي اقتراب هذا المصير ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ [مريم: ٨٤]، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ...﴾ [الأحقاف: ٣٥].

هل نستطيع القول ـ فى ضوء ما تقدم ـ إن باعث هذه العجلة بصورتيها فى نفسه ﷺ هو تعجل هؤلاء الضالين ليوم القيامة؟

الواقع أن فى سياق السورة التى نحن بصددها ما يدعم هذا القول ، ولتجلية ذلك نود أن نتأمل ما جرى عليه المفسرون في تفسيرهم لقوله سبحانه قبل نهى الرسول عن العجلة بالقرآن: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ ﴾ ، لقد اتفق هؤلاء المفسرون على أن الفعل «يفجر» فى الآية الأولى هو من الفجور بمعنى الميل عن الحق والانبعاث في الشهوات والمعاصى، وأن لفظة «أمامه» إنما تعنى الزمان لا المكان في هذا السياق، ثم اختلفوا بعد ذلك فى تفسير المراد بالآية الكريمة تبعًا لاختلافهم في تحديد مرجع الضمير المذكور في هذه اللفظة: وهل هو الإنسان المشار إليه فى الآية؟ أم هو يوم القيامة؟ أم هو الله سبحانه وتعالى؟ فمن أقوالهم في تفسير الآية:

ـ أن هذا الإنسان الذى ينكر البعث يريد أن يدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

ـ أنه يقدم الذنب ويؤخر التوبة حتى يأتيه الموت على شر أحواله.

ـ أنه يريد الحياة ليتعاطى الفجور فيها.

ـ أنه يريد أن يكذب بما أمامه من البعث والحساب.

ـ أنه يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدى يوم القيامة وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه.

ـ أنه يريد أن يعمل الفجور بين يدى الله تعالى ويمرأى منه ومسمع ويطمع فى أن لا يؤاخذه بذلك أو يجازيه بفجوره[1].

ونود أن نبادر بالإشارة إلى أن الانبعاث فى الشهوات والمعاصى هو أحد معنيين تحتملهما دلالة الفعل «يفجر» فى الآية الكريمة ، إذ إن هذا الفعل قد يكون من فجر فجوراً بهذا المعنى السابق الذى ركز عليه المفسرون، كما قد يكون من فجر الشيء يفجره فجراً بمعنى شقه، يقول الراغب في مادة هذا الفعل:

«الفجر: شق الشيء شقًّا واسعًا كفجر الإنسان السكر، يقال: فجرته فانفجر وفجَّرته فتفجَّر... والفجور شق ستر الديانة، يقال: فجر فجوراً فهو فاجر، وجمعه فجار وفجرة[2].

وجدير بالذكر أن الراغب أورد الآية الكريمة بين الشواهد التى ساقها على المعنى الثانى وردد فى تفسيرها بعض الأقوال السابقة، أى أنه كان يرى شأنه شأن غيره من المفسرين أن الإرادة التى تخبرنا عنها الآية هى ـ فحسب ـ إرادة الفجور!!

وفي تصورى ـ والله أعلم ـ أن هذا المعنى الذى أغفله المفسرون (الفجر بمعنى الشق) هو الأقرب إلى تفسير الآية الكريمة ، وسوف يتبين لنا بعد قليل أنه الأكثر ملاءمة لطبيعة السياق في سورة القيامة ، فالضمير فى لفظة «أمامه» يعود على الإنسان الذى يمارى فى يوم القيامة ،أما هذه اللفظة ذاتها (وهى تعنى الزمان كما أسلفنا) فإنها تقع مفعولاً به لفعل الفجر بهذا المعنى كما وقعت لفظة اليوم

---

(١) انظر: الكشاف: (جـ٤/ ١٦٤) ، والتفسير الكبير: (جـ١٥/ ٢١٨)، والبحر المحيط: (جـ٨/ ٣٨٥)، والمحرر الوجيز : (جـ١٦/ ١٧٣)، ومجمع البيان : (جـ٦/ ١٢٣) ، والتحرير والتنوير : (جـ١٤/ ٢٤٢)، ونظم الدرر : (جـ٢١/ ٩٠) ، والجامع لأحكام القرآن : (جـ١٩/ ٩٤)، وروح المعانى : (جـ٢٩/ ١٣٨).

(٢) المفردات : ٣٧٣ .

مفعـولاً به لفعل الخوف فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ١٠]، ومغـزى ذلك أن الآية الكريمة ـ إذا صح هذا الفهم ـ تصور تعجل هذا الإنـسان ليوم القـيامة، وتخـبر عن أنه فى غـمار هذا التـعجل يود لو استطاع أن يشق حجب المستقبل أمامه كى يستطلع حقيقة هذا اليوم.

ومما يؤنس لفهـم الآية الكريمة على هذا النحو ـ فـضلاً عن وضوح المناسـبة بينها وبين نهى النبى ﷺ عن التعجل بالقرآن ـ ما يلى:

[أ] ـ أن مـادة (ف . ج . ر) لم ترد بصيـغة الـفعل فى القـرآن الكريم إلا بمعنى الشق، فلقد وردت مع اخـتلاف فى الصيغـة فى تسعة مواضع خـلافًا لهذا الموضع وهى قوله سبحانه:

ـ ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء: ٩٠].

ـ ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣].

ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٤].

ـ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١٢].

ـ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٦].

ـ ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء: ٩١].

ـ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [الانفطار: ٣].

ـ ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤].

ـ ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠].

وإذا كانت صيغة الفعل من تلك المادة قد دلت فى تلك المواضع التسعة على الفجر أو الشق بمعناه الحسى ، فإن ذلك يطمئن إلي القول بأنها فى الموضع العاشر الذي نحن بصـدده قـد وردت للدلالة عـلى إرادة الفـجـر أو الشق لا على إرادة الفجور.

[ب] ـ قوله عز وجل بعد تلك الآية مباشرة إخباراً عن ذلك الإنسان الذى يريد أن يفجر أمامه: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾﴾ ،لقد ذكر المفسرون في موقع هذه الآية عدة آراء : فلقد قيل: إنها جملة حالية من الضمير العائد على الإنسان في «يفجر» وقيل أيضًا: إنها جملة مستأنفة جيء بها تعليلاً لإرادة هذا الإنسان الدوام على الفجور أو تعجبًا من سؤاله عن وقت يوم القيامة، وقيل كذلك: إنها بدل من جملة «يفجر أمامه»[1].

وعندى ـ والله أعلم ـ أن الرأى الأول هو أرجح هذه الآراء، فالمعنى فيما نرجح هو أن هذا الإنسان حال سؤاله: أيان يوم القيامة يود لو استطاع أن يفجر أمامه أو أيامه المقبلة تعجلاً لهذا اليوم ـ ولعل مما يؤنس لهذا الرأى أن الرد على مثل هذا السؤال فى القرآن الكريم قد جاء مقرونًا فى مواضع كثيرة بالإشارة إلى تعجل سائليه لذلك اليوم[2]، ومن تلك المواضع قوله عز وجل:

ـ ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات: ١٢ـ١٤].

ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴿٧٢﴾﴾ [النمل: ٧١ـ٧٢].

وقوله: ﴿. . . فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء: ٥١]

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يونس: ٤٨ـ٥١]

---

(١) انظر: روح المعانى : (جـ٢٩/١٣٨) ، والتحرير والتنوير : (جـ١٤/٣٤٣).

(٢) لعل من نافلة القول أن نشير إلى أن ما نلاحظه هنا من تضمن السؤال عن يوم القيامة معنى التعجل لا يتنافى مع ما أشار إليه غير واحد من المفسرين من أنه يتضمن معنى الاستبعاد؛ إذ من المسلم به أن تعجل الإنسان لشيء ما هو سبب إحساسه ببعده.

[ج] ولعل مما يدعم هذا الفهم قوله عز وجل بعد ذلك مباشرة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة: ٧ـ ١٠].

لقد سيقت هذه الآيات الأربع للرد على ذلك الإنسان الذي يريد أن يفجر أمامه سائلا أيان يوم القيامة، ولعلنا نلاحظ أنها قد عمدت في هذا الرد إلي مبادرته لا بموعد الحدوث الذي يتساءل عنه، بل بهذا الحدوث ذاته متمثلاً في ثلاثة من مشاهده: (برق البصر ـ وخسف القمر ـ وجمع الشمس والقمر) ثم بالإخبار عن تساؤله المرقوب آنذاك (أين المفر) ، ولعلنا نلاحظ أيضًا ذلك الإيقاع السريع الخاطف السارى في تلك الآيات (لقصرها من جهة وانعدام حروف المد واللين في فواصلها وفي كثير من أجزائها من جهة أخرى) ذلك الإيقاع الذى يخيل للقارئ أو السامع أن هذه المشاهد تتلاحق أو تتسابق سراعًا نحو هذا الإنسان. فإذا أضفنا إلي ذلك دلالة حرف «الفاء» الواقعة في صدر هذه الآيات على التتابع الفورى في الحدوث، ثم إيثار ذلك الفعل الموحى بالسرعة الخاطفة (برق) فى الإخبار عن أول مشهد ، إذا أضفنا ذلك ترجح لدينا القول بأن هذه الآيات إنما سيقت للرد على إرادة الفجر أو التعجل لا إرادة الفجور والانغماس فى المعاصى ، أعنى أنها قد سيقت لمجابهة ذلك الإنسان بأنه إنما يستبعد يومًا دانى الحدوث، ويتعجل أمرًا معجلاً في ذاته. . وأن إرادته المندفعة إلى الأمام نحو الفجر سوف تستحيل سريعًا إلى إرادة مندفعة إلي الخلف نحو الفرار!!

[د] أخيرًا: ولعل مما يدعم هذا الفهم كذلك إيثار وصف الوجوه بالبسر أو البسور فى قوله سبحانه بعد ذلك بيانًا لمصير هؤلاء المارين فى يوم القيامة: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة: ٢٤].

لقد ردد غير واحد من المفسرين عند تفسيرهم لتلك الآية مقولة مؤداها: أن الباسل أبلغ أو أشد في تأدية معنى العبوس من الباسر، غير أنه لما كان الأول قد

غلب استخدامه فى الشجاع إذا اشتدت كلوحته فإن الآية قد عدلت عنه لإيهامه بذلك غير المراد[1].

والواقع أن هذه المقولة محل نظر، فنحن لا نسلِّم بأن لفظة الباسل ـ على إطلاقها ـ أبلغ فى تأدية معنى العبوس من لفظة الباسر، وذلك في ضوء ما هو معلوم من أن بلاغة اللفظة أو أبلغيتها إنما ترجع إلى مدى مواءمتها بظلالها وإيحاءاتها الدلالية الخاصة لطبيعة السياق الذى ترد فيه، كما أنَّا لا نسلم ـ من جهة أخرى ـ بأن السر فى إيثار الآية الكريمة لوصف الوجوه بالباسر هو ـ فحسب ـ لأن في الوصف بالباسل إيهامًا بغير المراد؛ إذ إننا لو سلمنا بذلك لسلمنا بالتبعية بأن هذا الإيثار ليست له أية مزية أخرى فوق عدم اللبس أو الإيهام!!

وفي تصورى ـ والله أعلم ـ أن الآية الكريمة قد آثرت وصف الوجوه بهذا الوصف (باسرة) لأن مادته اللغوية (فضلاً عن دلالتها على معنى العبوس) تدور حول معنى الاستعجال أو التعجل الذي هو محور من محاور السياق في سورة القيامة، ففى تلك المادة تقول معاجم اللغة:

البُسْر: الاستعجال بالشيء قبل أوانه، **وبسر بسورًا** : عجل، **وبسر الرجل الحاجة**: طلبها فى غير أوانها، **وبسر فلان النخلة**: لقحها قبل أوان التلقيح، **وبسر الدين**: تقاضاه قبل حلول أوانه، **وبسر القرحة**: نكأها قبل النضج، **وبسر السقاء**: شرب من لبنه قبل أن يروب، **وابتسر الفاكهة** : أخذها غضة طرية، **وابتسر الرأى**: أبداه قبل نضجه، وقوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ﴾، أى أظهر العبوس قبل أوانه وفى غير وقته[2].

وجدير بالذكر أن الراغب بعد أن أشار إلى دوران هذه المادة حول معنى الاستعجال تساءل عن سر إيثار وصف الوجوه بها فى الآية الكريمة قائلاً:

---

(١) انظر: الكشاف : (جـ٤/١٦٥) ، والتفسير الكبير : (جـ١٥/٢٢٩) ، وروح المعانى: (جـ٢٩/١٤٦).

(٢) انظر المادة فى : لسان العرب، والقاموس المحيط، والمعجم الوسيط.

[**فإن قيل:** فقوله (ووجوه يومئذ باسرة) ليس يفعلون ذلك قبل الوقت وقد قلت: إن ذلك يقال فيما كان قبل الوقت. قيل: إن ذلك إشارة إلى حالهم قبل الانتهاء بهم إلى النار، فخص لفظ البُسْر تنبيهًا أن ذلك مع ما ينالهم من بعد يجرى مجرى التكلف ومجرى ما يُفعل قبل وقته[1]].

ولعلنا نحس بما فى إجابة الراغب عن تساؤله السابق من غموض وبعد!! فنحن لا نرى وجهًا لتطبيق معنى البسر على حال هؤلاء الكفار يوم القيامة، وإلا فأى شىء يتعجلونه أو يتطلبونه قبل أوانه فى ذلك اليوم الذى لا يتوقعون فيه إلا سوء المصير ووخيم العاقبة؟!

لقد أخبرنا السياق الذى وردت فيه الآية عن مقولة هؤلاء الكفار يوم القيامة: أين المفر؟ الأمر الذى يترجح معه القول بأن وصف وجوههم بالبسر المتضمن لمعنى التعجل ليس إشارة إلى حالهم في هذا اليوم ـ كما ذكر الراغب ـ بل هو إشارة إلي حالهم فى الدنيا كى تبرز المفارقة بين تعجلهم له قبل وقوعه دونما استعداد له أو إشفاق منه، وكلوحة وجوههم وتشبثهم بالفرار منه عند هذا الوقوع!!

...لعلنا عند هذا الحد نستطيع الإجابة عن التساؤل الذى طرحناه في صدر هذا الكتاب عن:

وجه المناسبة أو الارتباط بين نهى النبى ﷺ عن التعجل بالقرآن وسياق سورة القيامة ؛ إذ بتأمل هذا النهى في ضوء ما سبق يتبين لنا أنه قد ورد فى ثنايا الإخبار عن تعجل الكفار ليوم القيامة فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبق أن رجحناه من أن هذا التعجل قد كان بما يلقيه على صدره ﷺ من همٍّ وأسى من أقوى بواعثه النفسيّة إلي التعجل ـ أدركنا أن الآيات الأربع التى تضمنت هذا النهى ليست مجرد استطراد يعوزه وسائل الاتصال بالسياق، أو نتوء اعتراضى خارج عن مساره، بل هى خيط أصيل في نسيجه ، ولبنة أساسية من لبنات بنائه المحكم.

---

(١) المفردات : ٤٦ .

على أن في هذا الموقع من السياق ما يدل على أن همَّ نفس النبى ﷺ بالتعجل على هؤلاء الكفار (الصورة الثانية من تعجله) إنما كان هو الآخر بمثابة رد فعل لتعجلهم ليوم القيامة، وهذا التعجل هو ما يدل عليه دلالة ضمنية بطريق أسلوب القصر قوله عز وجل بعد ذكر مقدمات هذا اليوم : ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ ثم قوله بعد ذكر مقدمات الموت: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ ونود هنا أن نلاحظ :

ـ أن الرسول ﷺ لم يتوجه إليه الخطاب في تلك السورة إلا ثلاث مرات إحداها في النهى السابق والأخريان في هاتين الآيتين.

ـ أن هذه المرات الثلاث أو الآيات الست قد وقعت جميعها بعد الإخبار عن تعجل الكافر ليوم القيامة وتساؤله الاستبعادى عن موعد وقوعه.

ـ أن نسق بناء الجملة المفيد لمعنى القصر فى الآيتين الأخريين هو عينه نسق بنائها فى قوله سبحانه في آيات النهى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ ففيهما كما فى هاتين الآيتين تحقق معنى القصر عن طريق تقديم الجار والمجرور أو الخبر (إلى ربك ـ علينا) على المبتدأ أو اسم إن (المستقر ـ المساق ـ جمعه وقرآنه ـ بيانه) .

ولعلنا نستطيع القول في ضوء هذه الملاحظات: إن تلك الآيات الست التى وردت عقب الإخبار عن تعجل الكفار ليوم القيامة قد سيقت لتثبيت قلب النبى ﷺ ومطامنة خاطره فى مواجهة هذا التعجل ، فكأن هذه الآيات تقول له: تذرع بالصبر على ما تكابده من مراء المشركين حول يوم القيامة، ولا يدفعنك تعجلهم لوقوعه إلي تعجل نزول القرآن، فإن المتكفل بإنزاله هو الخالق عز وجل لا أنت، ولا إلي التعجل عليهم فإن إليه سبحانه ـ لا إليك ـ توقيت نهايتهم في الدنيا ومستقرهم في الآخرة.

إن التساؤل الذى يطرح نفسه علينا الآن هو: ما الغرض الذي سيقت من أجله تلك السورة؟ وكيف تضافرت أو توحدت آياتها الأربعون، كل منها فى موقعها من السياق، فى سبيل تأديته؟

إن الغرض الذى سيقت له السورة فيما نرى (استرشاداً بتأمل عناصر السياق واستئناساً بما سبق) هو: **دحض صور المراء حول يوم القيامة إقراراً لحقيقة هذا اليوم وتأكيداً لوقوعه من جهة، وطمأنة لخاطر الرسول ﷺ كيلا يدفعه ذلك المراء إلي التعجل بالقرآن أو بالممترين من جهة أخرى.**

لقد كان لهذا الغرض ـ بغايتيه ـ دوره الفعال لا فى إيثار وحدات السياق بظواهرها اللغوية أو الأسلوبية فحسب، بل كذلك فى إيثار ترتيبها فى ذلك النسق الخاص الذى تشابكت خلاله وتآزرت ـ بتلاقيها حول هذا الغرض ـ فى وحدة دلالة متماسكة.

وتجلية لمدى تآزر عناصر السياق فى تأدية هذا الغرض نود أن نتوقف قليلاً لاستنطاق الدلالة أو استشفاف المغزى فى كل ظاهرة من الظواهر الأربع التالية:

أ ـ الترتيب المعكوس لأطوار الإنسان.

ب ـ أسلوب الاحتباك في منتصف السورة.

ج ـ نفى القسم فى صور السورة.

د ـ تكرار الإضراب في إثبات حقيقة البعث.

***

أ ـ الترتيب المعكوس:

لقد سار البيان القرآنى في مواطن كثيرة على ذكر الأطوار التى تتعاقب على الإنسان ـ منذ أن يشاء الخالق عز وجل إيجاده من العدم ـ بحسب ترتيبها في الحدوث (الحياة ـ الموت ـ البعث أو الحياة الثانية) من ذلك على سبيل المثال قوله تبارك وتعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨] ، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦] ، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ

لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحج: ٦٦]. أما السياق الذي نحن بصدده فقد عكس هذا الترتيب، فبدأ أولاً بإثبات البعث: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ ﴾.

ثم ثنى بذكر حقيقة الموت: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ثم ختم بالحياة أو النشأة الأولى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾.

ولعل من اليسير ـ في ضوء ما تقدم ـ إدراك مدى مواءمة هذا الترتيب المعكوس لطبيعة السياق، فإذا كانت تلك السورة قد سيقت ـ كما أسلفنا ـ لدحض المراء حول يوم القيامة، فلقد كان من الطبيعي لتحقيق هذا الغرض على أكمل وجه أن يبدأ سياقها بإثبات حقيقة البعث؛ إذ إنه أكثر هذه الأطوار الثلاثة تعرضًا لذلك المراء، وعلى هذا الأساس ذاته جاء الإخبار عن أول تلك الأطوار حدوثًا (النشأة الأولى) في خاتمة السورة، إذ إن أحدًا من المشركين لم يجادل ـ أو لم يستطع بالأحرى ـ في حقيقة إيجاده من العدم وفي أنه قد كان بعد أن لم يكن، أما الموت فقد جاء ذكره وسطًا بين هذين الطورين، لا لتوسطه بينهما في واقع الأمر أو في ترتيب الحدوث فحسب، بل لتوسطه بينهما كذلك من حيث درجة تعرضه لمراء هؤلاء المشركين؛ لأنهم قد أقروا بحقيقة حدوثه من جهة، وجادلوا ـ امتدادًا لمرائهم حول البعث ـ في حقيقة محدثه عز وجل من جهة أخرى ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ونود هنا أن نلاحظ أن تدريج هذه الأطوار الثلاثة بحسب تعرضها لمراء المشركين (كثرة ـ قلة ـ فانعدامًا) قد واكبته وتساوقت مع دلالته الظواهر التالية:

١ ـ التدرج في تلبث السياق إزاء هذه الأطوار، فبينما استغرق إقرار حقيقة البعث اثنتي عشرة آية (٣ـ١٥) استغرقت حقيقة الموت خمسًا (٢٦ـ٣٠)، أما النشأة الأولى فلم تستغرق سوى ثلاث (٣٧ ـ ٣٩).

٢ ـ تكرار لفظة الإنسان (الممترى فى يوم القيامة) في ثنايا إقرار حقيقة البعث إشعاراً بتركز المراء وتعدد صوره حول هذه الحقيقة ، فلقد ذكرت هذه اللفظة في سياق السورة ست مرات جاءت خمس منها فى آيات البعث، أما السادسة فقد وقعت بين آيات الموت وآيات النشأة الأولى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾.

٣ ـ التدرج فى نسبة الأفعال إلي هذا الإنسان، فبينما أسندت إليه في آيات البعث خمسة أفعال مبنية للمعلوم (يحسب ـ يريد ـ يسأل ـ يقول ـ ألقى) أسند إلي ضميره فعل واحد في آيات الموت ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾، أما في آيات النشأة الأولي فلن يسند إليه أى فعل، حيث أوثر في تلك الآيات فعل التكوين وفعل الجعل (ألم يك نطفة ـ ثم كان علقة ـ فجعل منه الزوجين) وهما للخالق عز وجل وحده.

٤ ـ أخيراً ، نود أن نلاحظ أن عدم مراء المشركين حول حقيقة النشأة الأولى لم يكن له أثر فى تأخير الآيات الثلاث التى سيقت للتذكير بها إلي خاتمة السياق فحسب، بل لقد كان له أثره كذلك في أمرين هما:

* عدم إرداف تلك الآيات بخطاب النبى ﷺ كما أردفت آيات البعث وآيات الموت ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ـ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ وقد سبق أن أشرنا أن خطابه ﷺ قد كان لطمأنة خاطره في مواجهة المراء.

* اتخاذ حقيقة هذه النشأة دليلاً دافعًا لتأكيد حقيقة البعث، وهذا ما يبدو جليًّا فى إرداف آياتها الثلاث بذلك الاستفهام التقريرى الذى ختمت به السورة ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

***

ب ـ أسلوب الاحتباك:

تقول المعاجم اللغوية فى مادة (ح . ب . ك) : **الحَبْك**: الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة فى الثوب، يقال: **حبك الشيء حبكا**: أحكمه ، **وحبك العقدة**: قوى عقدها ووثقها، **والاحتباك**: شد الإزار على الوسط، **والتحبيك**: التوثيق، **والحُبكة**: بضم الحاء: هى الحبل الذى يشد به على الوسط[1].

ويلحظ من هذه الدلالة فيما يبدو ـ كما سنرى بعد قليل ـ أطلق مصطلح «الاحتباك» في تراثنا البلاغى على كل أسلوب يراد فيه إقامة تقابل بين أمرين، غير أن هذا التقابل لا يتحقق على مستوي ظاهر العبارة أو البنية السطحية لهذا الأسلوب، ومن ثم فإن إدراكه أو تمثل الغرض منه لا يتأتى إلا إذا استدللنا على المحذوف في كل من الطرفين بمقابله المثبت فى الطرف الآخر، فالاحتباك هو ـ كما قيل في تعريفه[2] ـ : «**أن يجعل الكلام شطرين ويحذف من كل منهما نظير ما يثبت فى الآخر**».

ومن أمثلة هذا اللون البلاغي في القرآن الكريم قوله عز وجل: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)**﴾ [يونس: ٦٧]

ففى هذه الآية الكريمة يمتن الخالق سبحانه على عباده بنعمته عليهم فى آيتى الليل والنهار، حيث جعل لهم الليل مظلمًا كى يظفروا فيه بالراحة والسكينة بعد عناء الحركة وشقاء الكدح فى سبيل الرزق أثناء النهار، وجعل لهم النهار مضيئًا كى تتهيأ لهم فرص الحركة والعمل، وتستتير لهم سبل الانتشار والتقلب فى الأرض، ولعلنا نلاحظ أن الآية قد سلكت مسلك الاحتباك فى إبراز هذا التقابل ـ النافع للإنسان ـ بين الآيتين ، حيث حذفت من آية الليل سبب السكون (الإظلام) لدلالة وصف النهار بالضياء (مبصرًا) عليه، ثم حذفت مسبب الضياء أو ما يترتب

---

(١) انظر المادة في لسان العرب ، والمعجم الوسيط ، وكذا : المفردات (١٠٦).

(٢) انظر : الوسيلة الأدبية (جـ٢/ ١٤٦).

عليه (الحركة والانتشار فى الأرض) لدلالة السكون في آية الليل (لتسكنوا فيه) عليه.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مزية هذا الأسلوب أو قيمته الفنية لا تتمثل ـ كما قد يتبادر إلي الذهن ـ في كونه صورة من صور الحذف ولونًا من ألوان الإيجاز فى التعبير فحسب، بل إنها تتمثل كذلك فى أنه ـ فى موقعه ـ يكون بمسلكه الدلالى الخاص هو الأكثر ملاءمة للسياق ووفاء بالغرض المراد، فنحن حين نتأمل الآية السابقة يتبين لنا أن اللفظين اللذين أوثر ذكرهما (لتسكنوا ـ مبصرًا) هما ـ معًا ـ ركيزة المعنى أو الغرض الذى سيقت لتأديته ، فإذا كان هذا الغرض كما أسلفنا هو امتنان المولى على عباده بنعمه عليهم فى تقلب الليل والنهار، فإن مناط ذلك الامتنان في أولهما هو المسبب لا السبب، وفى الثانى هو السبب لا المسبب، أو لنقل بتعبير آخر: إن النعمة الممتن بها هى في آية الليل هى نعمة السكون لا الظلمة المهيئة له وهى في آية النهار نعمة الضياء لا الحركة المترتبة عليه.

الوظيفة التعبيرية لمثل هذا الأسلوب ـ إذن ـ هى التوصل من خلال المزاوجة بين ظاهرتى الحذف والذكر إلى إبراز الخيطين الأصليين اللذين ينعقد عليهما المعنى وتتوثق بهما علاقة التعبير بالغرض، فكأن اللفظين اللذين يؤثر ذكرهما فى طرفى التقابل (وهذا وجه تسمية هذا الأسلوب احتباكًا) هما بمثابة طرفى الحبكة التى لا تؤدى وظيفتها فى شد الوسط إلا بعد تلاقيهما وانعقادهما معًا.

فى ضوء هذا الاستطراد (الذى أحسسنا بضرورته) نود أن نتوقف لاستجلاء دلالة هذا الأسلوب فى قوله عز وجل فى السورة التى نحن بصددها: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١)﴾[1] .

---

(١) هذا على قراءة الفعلين بالتاء (تحبون ـ تذرون)، أما على قراءتهما بالياء فإن التحول أو الالتفات يكون عن طريق الإفراد إلي طريق الجمع فحسب.

وتجدر الإشارة فى البداية إلى أن هاتين الآيتين قد وقعتا فى منتصف السورة تمامًا؛ فقبلهما فى السياق تسع عشرة آية، وبعدهما كذلك تسع عشرة آية، ولعلهما ـ والله أعلم بمراده ـ قد وقعتا هذا الموقع ؛ لأن المعنى الذى تتمخضان عنه قد كان ـ كما سنرى بعد قليل ـ بمثابة المركز الرئيسى أو المحور الذى تلتف حوله عناصر السياق في تلك السورة والنواة الأساسية للغرض الذى سيقت لتأديته، ولعل مما يدعم هذا التصور تحول مسار السياق عند هاتين الآيتين عن طريقى الإفراد والغيبة (**أيحسب الإنسان ... بل يريد الإنسان ... بل الإنسان على نفسه بصيرة**) إلي طريقى الجمع والخطاب (**كلا بل تحبون... وتذرون**) فإذا ما أضفنا إلي ذلك أن السياق قد عاد بعد هاتين الآيتين مرة أخرى إلي طريقى الإفراد والغيبة[1]، (**وظن... فلا صدق ولا صلى ، كذب وتولي ، ذهب ، ألم يك...**) أدركنا خصوصية الدور التعبيرى الذى تنهض به هاتان الآيتان فى سياق السورة الكريمة، فكأنهما في مسار هذا السياق ـ بهذا التحول ـ بمثابة الصورة التى يستدل بها السائر على معالم الطريق.

لقد سلكت الآيتان كما نرى مسلك الاحتباك في إبراز التقابل بين حب المشركين للعاجلة وإقبالهم عليها من جهة، وكراهيتهم للآخرة وتركهم لها من جهة أخرى؛ حيث أوثر فى أولاهما ذكر الحب كى يدل على كراهيتهم للآخرة فى الثانية، وأوثر فى الثانية ذكر الترك كى يدل على إقبالهم على العاجلة فى الثانية[2]. وبالتأمل نتبين قيمة إيثار ذكر الحب والترك (دون الإقبال والكراهية) فى هذا المسلك، تلك القيمة التى تتجلى فى ضوء ملاحظة ما يلى:

* أن الحب والترك ـ من جهة ـ هما ركيزتا المعنى المراد من هذا التقابل فهما معًا قوام المسلك الضال الذى سلكه هؤلاء المشركون المارون في يوم

---

(١) فيما عدا قوله عز وجل : ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ ، فلقد خرجت هاتان الآيتان عن طريق الغيبة غير أنهما سارتا على طريق الإفراد.

(٢) انظر : نظم الدرر : (جـ٢١/ ١٠٤).

القيامة، وهما معًا كذلك سبب العاقبة الوخيمة التى تنتظرهم عند حلول هذا اليوم، تلك العاقبة التى لا تترتب على مجرد إقبالهم على العاجلة وكراهيتهم للآخرة؛ لأن الإقبال على الأولى دون حب لا يكون إيثارًا لها وانغماسًا مطلقًا فى آنياتها الزائلة [1]؛ ولأن كراهية الثانية لا تكون سببًا لشؤم العاقبة وسوء المصير ما لم يستتبع الإعراض الكلى عنها والغفلة المطلقة عن الاستعداد لها.

* أن الحب والترك ـ من جهة أخرى ـ هما المحوران اللذان دارت حولهما عناصر السياق فى السورة الكريمة، فلقد كان حب المشركين للعاجلة ـ كما سيتضح لنا ذلك بعد قليل ـ هو مرد مرائهم حول حقيقة البعث وتعجلهم ليوم القيامة، وسؤالهم المتكرر عن موعد حدوثه، أما تركهم للآخرة فقد ترتبت عليه أو انتظمت في سلكه كل عناصر النصف الثانى من السياق[2]؛ **فهذا الترك** هو سبب تعلق نفوسهم بالترك هملاً دون تكليف أو حساب ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ وهو أيضًا السبب فى غفلتهم عن تذكر الموت أو النشأة الأولى وتركهم التأمل فيهما بوصفهما مقدمتين للآخرة ودليلين دافعين على حتمية حدوثها ، **وهذا الترك كذلك** هو سر تركهم الأعمال الصالحة المنجية فيها ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ وتركهم الإقبال عليها أو الاستجابة للتذكير الصادق بها، فهم لم يجعلوها ـ كالعاجلة التى يحبونها ـ نصب أعينهم وقبلة وجوههم بل لقد استدبروها واستدبروا الداعين إلي التسليم بها فجعلوهم كما جعلوها وراءهم أو من خلف ظهورهم ﴿وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾، ومن ثم كان جزاء وفاقًا لهذا الاستدبار أن يتوقعوا مداهمة

---

(١) لأن الإقبال فى تلك الحال لا يتنافى مع الإيمان بالآخرة والاستعداد لها بصالح الأعمال ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾ [القصص: ٧٧].

(٢) وهذا المسلك هو ما يصوره قوله سبحانه : ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٧].

العذاب لهم ـ عند حلولها ـ لا من الأمام بل من الخلف ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾، فالفاقرة هى كما قيل[1] قاصمة الظهر، يقال: فقرته الفاقرة ،أى نزلت به داهية عظيمة كسرت فقار ظهره!! . . على هذا النحو دارت جل عناصر السياق فى تلك السورة حول حب المشركين للعاجلة وتركهم للآخرة فكأن الحب والترك هما فى نسيج هذا السياق بمثابة خيطين أصيلين يتشابك أولهما مع بدايته (نفى القسم) ويتواصل الآخر مع نهايته (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) ويلتقيان (أو ينعقدان) عند المنتصف في ثنايا هذا التقابل الماثل في الآيتين!!

* أن الحب والترك ـ من جهة أخيرة ـ هما الدليلان اللذان ارتكز عليهما السياق فى دحضه لمراء المشركين حول يوم القيامة (الغرض الذي سيقت من أجله السورة) وسوف نرى عند تأمل الإضراب المتكرر وجه الاستدلال بالحب فى أولى الآيتين، أما وجه الاستدلال بالترك في الثانية فهو ما يتجلى فى ضوء ملاحظة أمرين :

الأول: إيثار مادة الترك فى الفعل «وتذرون» دون أى مادة أخرى بديلة كالنفى أو الإنكار مثلا (وتنفون ـ تنكرون).

الثانى: إيثار إيقاع هذا الفعل على «الآخرة» ذاتها لا على الاستعداد لها أو الإقبال عليها أو التأمل في مقدماتها، أو ما إلى ذلك من الأعمال التى لم يزاولها هؤلاء المشركون فعلا كما أوضحنا فى الفقرة السابقة، ففى هذين الإيثارين ـ والله أعلم ـ إشعار بأن حقيقة الآخرة ماثلة حتى فى نفوس هؤلاء المشركين لا يستطيعون لها دفعًا ولا يملكون إزاءها نفيًا، وأن صور مرائهم فيها ليست في حقيقة الأمر إلا محاولات يائسة لاقتلاع

---

(١) انظر: بصائر ذوى التمييز : (جـ ٤ / ٢٠٩) ، والكشاف : (جـ ٤ / ١٦٥ ـ ١٦٦) وتفسير أبى السعود : (جـ٩/٦٨).

جذورها من دخائلهم؛ إذ من المسلم به أن مادة الترك إنما تعنى الطرح أو الاستدبار لا النفى أو الإنكار ، ومغزى ذلك أن ترك هؤلاء المشركين للآخرة لا يعنى إمحاء صورتها فى نفوسهم أو إلغاء وجودها فى بواطنهم، وإنما هو فى واقع الأمر دليل دامغ على حقيقة هذا الوجود!!

هل نستطيع القول في ضوء هذه الآية الكريمة: إن السياق قد عمد فى إقراره لحقيقة الآخرة إلى تعرية نفوس المارين فيها للكشف عن مثول تلك الحقيقة ـ على نحو ما ـ فيها؟ وهل يحق لنا أن نلاحظ أثر هذه التعرية فى طمأنة خاطر الرسول ﷺ كيلا تؤسيه كثرة المراء.

لعل في النقطتين التاليتين ما يدعم هذا القول.

ج ـ نفى القسم في صدر السورة:

﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾

لقد تعددت صور الخلاف بين المفسرين حول هاتين الآيتين، فقد اتفقوا على أن «لا» فى الآية الثانية هى للنفى، أما فى الآية الأولى فقد اختلفوا حولها، فلقد قيل: ـ فى رأى ـ إنها زائدة كما زيدت فى قوله سبحانه : ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ وقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ ، وقيل ـ فى رأى ثان ـ : إنها لام الابتداء أشبعت فتحتها فظهرت الألف وأقسم خبر لمبتدأ محذوف، والمعنى: لأنا أقسم ، وقيل ـ فى رأى ثالث ـ: إنها للنفى، غير أن القائلين بهذا الرأى قد اختلفوا فى تحديد المنفى بها، فلقد قيل: إنها لنفى كلام سابق عليها، كأن المشركين حين أنكروا البعث قيل لهم: لا ليس الأمر على ما ذكرتم ثم قيل: أقسم بيوم القيامة أى أن أصحاب هذا الرأى يرون ما يراه أصحاب الرأيين السابقين من أن الآية الكريمة قد سيقت لإثبات الإقسام بيوم القيامة، وعلى هذا الأساس قيل: إن الله عز وجل أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة، **وقيل فى رأى آخر**: إن «لا» ليست لنفى كلام سابق على القسم بل هي لنفى القسم ذاته والتقدير: إنى لا أقسم بيوم

القيامة تعظيـمًا له، فهو أعظم وأجل من أن يقسم عليه، أو لا أقـسم عليه لإثباته فهو أظهر وأجلى من أن يثبته القسم.

كما اختلفوا في تفسير المراد بالنفس اللوامة: فلقد قيل: إنها كل نفس برة كـانت أو فاجرة، وقـيل أيضًا: هى النفس الـتقيـة التى تلوم النفس العاصية يوم القيامة ، وقيل كـذلك: هى النفوس الشريفة التى لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعة وقيل: بل هى نفوس الأشقـياء، فإنها تلوم نفسها على ما صدر منها من المعاصى يوم القيامة، وقيل: هى نفس آدم عليه السلام التى لم تزل تلوم على فعلها الذى خرجت به من الجنة.

كما اختلفوا كذلك حول وجه المناسبة بين يوم القيامة والنفس اللوامة (تبعًا لاختلافهم حول المراد بتلك النفس) ومما قيل في ذلك:

أن النفس اللوامة هي صاحبة الفوز والنجاة فى يوم القيامة.

أن المقصـود من إقامة القيـامة إظهار أحـوال النفس اللوامة، أعنى سعـادتها وشقاوتها.

أن أكثر لوم النفس إنما يقع فى ذلك اليوم؛ فإن من طلبه الملك طلب عرض وحساب يلوم نفـسه فى كونه لم يبالغ فى العـمل بما يرضى الملك والإخلاص في موالاته[1].

ولعلنا فى ضوء طبيعة الغرض الذي سيقت من أجلّه السورة، واستئناسًا بما انتهينا إليه في الفقرة السابقة نستطيع وسط غبار هذا الخلاف المحتدم تلمس الطريق إلي فهم المراد من الآيـتين الكريمتين وإدراك مدى تآزرهما مع غـيرهمـا من عناصر السيـاق فى وحدة دلالة مـتمـاسكة، فنحن نرجح القول بأن «لا» في كلـتا الآيتين

---

(١) انظر فى وجوه الخلاف حـول هاتين الآيتين : الكشاف : (جـ٤/ ١٦٣)، والتفسيـر الكبير (جـ ٢٠/ ٢١٤ ـ ٢١٦) ، والبـحـر المحـيـط : (جـ٨/ ٣٨٤) ، وروح المعـانى: (جـ١٩/ ١٣٥)، ومشكل إعراب القرآن:(جـ٢/ ٧٧٦) ، والمحرر الوجيز : (جـ ٦/ ١٧١، ١٧٢)، والتحرير والتنوير : (جـ١٤/ ٣٣٨، ٣٣٩).

لنفى القسم، كما نميل إلي الرأى القائل بأن نفى القسم لا يفيد تعظيم المقسم عليه بل يفيد تأكيد إثباته والإشعار بأنه ـ لثبوته في ذاته ـ لا يحتاج إلى قسم؛ إذ إن إثبات المعنى عن طريق نفيه هو آكد لثبوته كما فى قولنا: لا أوصيك بفلان تأكيداً للتوصية، وقولنا: بغير يمين تأكيداً للثقة التى تحتاج معها إلى يمين[1].

أما النفس اللوامة فلعل المراد بها فى هذا السياق ـ والله أعلم ـ نفس ذلك الإنسان الممارى فى يوم القيامة والذى تكرر ذكره فى تلك السورة ست مرات جاءت أولاها بعد ذكر هذه النفس مباشرة : ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣﴾ ،أما وصف هذه النفس بكونها «لوامة» ذلك الوصف الذى ينبئ عن التكرار والإعادة كما قيل[2]. فهو للدلالة على أنها نفس حائرة قلقة لا يقر لها قرار، ولا تثبت بهذا الإنسان على حال ؛ فهى إذ تدفعه بحبها للعاجلة إلى المراء حول حقيقة الآخرة لا تستطيع أن تخدع ذاتها عن تلك الحقيقة الثابتة فيها برغم هذا المراء: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾؛ومن ثم يظل ذلك الإنسان فى صراع دائم بين حقيقة الآخرة التى يدركها وحب العاجلة الذى يدفعه إلى المماراة فيها.

إننا بناء على ذلك نستبعد الأقوال الثلاثة السابقة التى ذكرها المفسرون فى بيان المناسبة بين يوم القيامة والنفس اللوامة، فاللوم أو التلوم فيما نحس ليس وصفًا لحال تلك النفس عند تحدد مصيرها في هذا اليوم (وهو ما دارت حوله تلك الأقوال) بل هو وصف لتوترها وتقلب أحوال صاحبها في الدنيا بسبب مثول حقيقة هذا اليوم فيها، ومؤدى ذلك أن السورة الكريمة إذ قيدت النفس فى تلك الآية بهذا الوصف إنما أرادت ـ تلبية للغرض المسوقة له ـ المبادرة بسوق أقوى الأدلة الداحضة لمراء المشركين حول يوم القيامة، فإذا كان فى نفى القسم بهذا اليوم فى أولى الآيتين تأكيد لحقيقته وحتمية حدوثه، فإن نفى القسم بالنفس اللوامة فى الثانية (وهذا فيما نرى وجه المناسبة بين الآيتين) تأكيداً لمثول هذه الحقيقة فى

---

(١) انظر: التفسير البيانى للقرآن . د/ عائشة عبدالرحمن (جـ١/١٦٦)، ونظم الدرر : (جـ٢١/ ٨٥).

(٢) انظر : التفسير الكبير : (جـ ٣٠ /٢١٦).

نفوس هؤلاء المشركين أو الممتارين أعينهم، الأمر الذى يدمغ مراءهم حولها ويقوضه من أساسه!!

وإذا كانت الآية الثانية قد أكدت من خلال نفى القسم ثبوت حقيقة الآخرة فى نفوس المشركين فإن الآيات التالية لها قد ارتكزت على هذا الثبوت فى تعريتها لمرائهم حولها. وهذا ما يتجلى من خلال تأمل الظاهرة التالية الماثلة فى تلك الآيات.

د ـ تكرار الإضراب:

لقد ورد حرف الإضراب «بل» ثلاث مرات فى النصف الأول من السياق، وقع فى أولاها بعد الاستفهام التوبيخى عن مماراة الإنسان في حقيقة البعث : ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣﴾ وذلك في قوله سبحانه في الآية الخامسة ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥﴾ ووقع في الثانية في صدر الآية الرابعة عشرة ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ ووقع في الثالثة مسبوقًا لحرف الردع والزجر «كلا» فى الآية العشرين ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾.

وبداية نود الإشارة إلى أن أحدًا من المفسرين لم يتوقف لبيان نوع الإضراب الثالث «كلا بل . .» وهل هو إبطالى أو انتقالى؟ **أما الإضراب الثانى «بل الإنسان..»** فإن الذين تعرضوا له منهم رجحوا القول بأنه انتقالى لا إبطالى، ومن هؤلاء ابن عطية الذي ينص على أن قوله تعالى: **(بل الإنسان)** إضراب بمعنى الترك لا على معنى إبطال القول الأول[1]، وقد أضاف كثير من هؤلاء المفسرين القول بأن الانتقال فى الآية الكريمة هو على معنى الترقى على أساس أن الحال التى تصورها أو تخبر عنها فى ذلك الإنسان هى أرقى من الحال التى تخبر عنها الآية السابقة عليها، والتقدير : ينبأ الإنسان بأعماله في ذلك اليوم بل هو فى

---

(١) المحرر الوجيز : (جـ ١٦ / ١٧٥).

الحقيقة لا يحتاج إلى أن يخبره غيره فإنه يومئذ عالم بتفاصيل أحواله شاهد على نفسه[1]. **أما الإضراب الأول**: «بل يريد الإنسان..» فقد ذهب بعض المفسرين إلى أنه إبطال لإنكار البعث فى الآية السابقة عليه، والتقدير: دع تعنيفه على هذا الإنكار فإنه أشط من ذلك وأتى يرتدع وهو يريد ليدوم على فجوره[2]، وذهب آخرون إلى أنه لا يعنى الإبطال بل الترك والانتقال، يقول ابن جزى الكلبى فى ذلك: «وليست بل هنا للإضراب عن الكلام الأول بمعنى إبطاله وإنما هى للخروج منه إلى ما بعده[3] وهذا بعينه ما ارتضاه أبوحيان فى بيانه لمعنى الإضراب فى الآية الكريمة، فهو يقول في تعقيبه على رأى الكشاف: «وقال الزمخشرى: بل يريد عطف على أيحسب فيجوز أن يكون مثله استفهامًا وأن يكون إيجابًا على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب.. وهذه التقادير الثلاثة لا تظهر وهى متكلفة ، بل المعنى الإخبار عن الإنسان من غير إبطال لمضمون الجملة السابقة[4]...».

والحقيقة أننا مستأنسين بطبيعة الغرض الذي سيقت له السورة الكريمة وبما ألمحنا إليه فى الفقرة السابقة نرجح أن الاضطرابات الثلاثة (لا الأول والثانى فحسب) لا تفيد معنى الإبطال بل الترك والانتقال. وأن الانتقال فى ثلاثتها (لا في الثانى فقط) يتضمن معنى الترقى، ولتوضيح هذا وذاك وتجلية طبيعة الدور الذى نهضت به تلك الظاهرة فى سياق السورة الكريمة نود أن نلاحظ ما يلى:

* أن الإضرابات الثلاثة قد وقعت فى ثنايا الإخبار عن مراء الإنسان حول يوم القيامة، ذلك الإنسان الذى كرر ذكره فى الإضرابين الأولين (بل

---

(١) انظر : روح البيان : (جـ ١٠/ ٢٤٧) ، وتفسير أبى السعود : (جـ٥/ ٧٤) ، والتحرير والتنوير: (جـ ١٤/ ٣٤٧).

(٢) انظر : الكشاف : (جـ ٤ / ١٦٤) ، وروح المعانى : (جـ٢٩/ ١٣٨).

(٣) كتاب التسهيل(جـ٤/ ١٦٤) ، وانظر : المحرر الوجيز : (جـ١٦ / ٣٧١).

(٤) البحر المحيط : (جـ٨/ ٣٨٥).

يريد الإنسان. . . بل الإنسان) وأسند الفعل إلي ضميره بعد الالتفات فى الإضراب الثالث (كلا بل تحبون).

* أن الجانب النفسى أو الشعورى لهذا الإنسان هو مناط هذا الإضرابات الثلاثة، فمتعلقاتها هى الأحوال الشعورية أو النزوعية التى تنضوى عليها نفس هذا الإنسان والتى يرتبط كل منها بصورة أو بأخرى بمرائه حول هذا اليوم، فبينما يخبرنا أولها عن حال الإرادة أو النزوع النفسى إضرابًا عن حال الحسبان ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ ... بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥ ﴾ يخبر أوسطها عن حال ثالثة هى حالة العلم أو الإدراك اليقينى ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ ﴾ ، كما يخبر الأخير عن حال رابعة هى حال الحب ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ ﴾ ، وبالتأمل يتبين لنا أن كل حال لاحقة من تلك الأحوال لا تنفى وجود سابقتها (الأمر الذى يترجح فى ضوئه كون الإضراب انتقاليًا لا إبطاليًا) ؛ إذ إن ما يريده السياق من إبراز تلك الأحوال هو الإخبار عن مثولها مجتمعة ـ رغم التباين بينها ـ فى نفس هذا الإنسان، الأمر الذى يعنى قلق هذه النفس وتوترها بسبب تقلبها بين تلك الأحوال، فكأن السورة الكريمة قد أرادت من خلال ظاهرة الإضراب المتكرر تفصيل الأسباب التى جعلت نفس هذا الإنسان (لوامة).

* أن هذه الأحوال النفسية الأربع (الحسبان ـ الإرادة ـ اليقين ـ الحب) قد رتبت فى نسق تطورى صاعد تنعكس فى ثناياه طبيعة الترقى الذى تفيده ظاهرة الإضراب من جهة، والمنهج الذى سلكه السياق في استدلاله بحب هؤلاء المشركين للعاجلة فى إبطال مرائهم حول يوم القيامة من جهة أخرى، ولتجلية طبيعة هذا النسق نود أن نتوقف قليلاً إزاء دلالة كل حال من تلك الأحوال:

١ ـ الحسبان:

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ ﴾ ، وبداية نود أن نلاحظ أن: بينما أوثر فعل الحسبان فى تلك الآية للتعبير عن جدل ذلك الإنسان في حقيقة البعث أو

الآخرة أوثر فعل الظن فى آية لاحقة للتعبير عن توقعه الموت أو الفراق فى لحظات الاحتضار ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ ـ يقول الراغب فى التفرقة بين هاتين المادتين : «الحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الإصبع، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك ويقارب ذلك الظن، لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر[1]، ولعلنا نستطيع القول فى ظل هذا الفارق: إن فى إيثار أولى الآيتين لفعل الحسبان (دون فعل الظن أو العلم مثلاً) إشعاراً بأن مراء ذلك الإنسان فى حقيقة البعث أو الإحياء بعد الموت لا يعززه يقين راسخ فى أرجاء نفسه، إذ إن هذه الحقيقة ماثلة بالرغم عنه ـ لوضوح أدلتها اليقينية فى تلك النفس ـ غير أنه يتجاهلها أو يتغافل عنها فلا يخطرها أو يخطر أدلتها بباله عندما يندفع نحو هذا المرء: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

٢ـ الإرادة :

﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾﴾ ، لقد سبق أن رجحنا أن الفعل «يفجر» في الآية الكريمة هو من الفجر (الدال على تعجل هذا الإنسان ليوم القيامة) لا من الفجور، وهنا نضيف أن فى إيقاع فعل الإرادة على هذا الفعل تعرية لحالة نفسية أدل من سابقتها (الحسبان) على مثول حقيقة الآخرة في نفس هذا الإنسان؛ فالإرادة ـ كما يقول الراغب ـ «منقولة من راد يرود إذا سعى فى طلب شيء، والإرادة فى الأصل قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل، وجعل اسمًا لنزوع النفس إلي الشيء..[2]» ومغزى ذلك أنه إذا كانت حال الحسبان تعرى إغفال ذلك الإنسان لحقيقة الآخرة الماثلة فى نفسه ،فإن حال الإرادة تعرى قلقه النفسى بسبب هذا المثول ذلك القلق الذى يقض مضجعه فيحرك فى نفسه داعية النزوع إلي تعجل يوم القيامة ، شأنه في ذلك شأن الطالب المهمل الذى يتعجل يوم الامتحان فى محاولة يائسة للتخلص من شبحه المخيف الجاثم على صدره!!

---

(١) المفردات (١١٨/١١٩) ، وانظر : الفروق اللغوية : (٧٩ ـ ٨٠).

(٢) السابق : (٢٠٦).

٣ ـ اليقين:

﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾.

لقد تعددت وجوه اختلاف المفسرين حول هاتين الآيتين : **لقد اختلفوا فى إعراب الآية الأولى**، فقيل فى رأى: إن الإنسان مبتدأ وبصيرة خبره وعلى نفسه متعلق ببصيرة بتقدير على أعمال نفسه، وقيل فى رأى آخر: إن بصيرة مبتدأ ثان والمراد به قرين الإنسان من الحفظة ، وعلى نفسه خبر المبتدأ الثانى مقدم عليه، ومجموع الجملة خبر عن المبتدأ الأول (الإنسان) واختار أبو حيان ـ فى رأى ثالث ـ أن تكون بصيرة فاعلاً بالجار والمجرور وهو الخبر عن الإنسان، **كما اختلفوا كذلك حول معنى بصيرة**، فقيل: إنها تعنى الحجة، والتقدير: بل الإنسان حجة وبينة واضحة على نفسه ، وقيل: إنها تعنى الشاهد، والمراد شهادة جوارح الإنسان عليه يوم القيامة، وقد استدل أصحاب هذا الرأى بقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤] ، **كما اختلفوا أيضًا** حول الهاء فى «بصيرة» فقيل: إنها هاء المبالغة كالهاء في قولهم: داهية وعلامة وراوية، وقيل: إنها تاء التأنيث، على أساس أن اللفظة نعت لاسم مؤنث، والتقدير: عين بصيرة أو حجة بصيرة، **كما اختلفوا حول معنى لفظة «معاذيره»** فقيل: هى جمع معذرة أو اسم جمع لها، والمعنى أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه وجادل عنها وأتى بكل عذر وحجة فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه، وقيل: المعاذير الستور واحدها معذار، وهذا القول هو ما ذهب إليه الضحاك والسدّى والفراء والمبرد وغيرهم، والمعنى عليه: أن الإنسان وإن أسبل الستر ليخفى ما يعمل فإن نفسه شاهدة عليه[1].

---

(١) انظر في هذا الخلاف : التفسير الكبير : (جـ ٣٠/ ٢٢١ ـ ٢٢٢)، والبحر المحيط : (جـ٨/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧)، وروح المعانى: (جـ٢٩/ ١٤٠ ـ ١٤١)، والمحرر الوجيز : (جـ١٦/ ١٧٥) ، والجامع لأحكام القرآن : (جـ١٩/ ٩٩ ـ ١٠١) ، وتفسير القرآن العظيم : (جـ٤/ ٤٤٩) ، وروح البيان : (جـ١٠/ ٤٢٧).

وقبل أن نختار الرأى الذي نرتضيه فى كل وجه من وجوه هذا الخلاف نود الإشارة إلى أن المفسرين قد اتفقوا ـ برغم هذا الخلاف المحتدم ـ علي أن الآيتين الكريمتين تصفان حال هذا الإنسان يوم القيامة، وأن الإضراب فى أولاهما هو عن مضمون الآية السابقة عليها ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴿١٣﴾﴾، وأن المعنى هو : ينبأ الإنسان بأعماله بل فيه ما يجزى عن الإنباء لأنه في هذا اليوم يكون عالمًا بتفاصيل أحواله شاهدًا على نفسه بما عملت. **والواقع أن السياق لا يأبى ـ بل لعله يرجح ـ** القول بأن هاتين الآيتين تصفان حالاً من الأحوال التى تنطوى عليها نفس هذا الإنسان فى الدنيا، وأنهما بذلك تمثلان حلقة فى سلسلة ذلك الإضراب الذى تكرر فى النصف الأول من سياق السورة فى سبيل تعرية نفس هذا الإنسان والكشف عن أحوالها وحقيقة دخائلها دحضًا لمرائه حول يوم القيامة.

إننا بناء على هذا الرأى الذى نميل إليه فى فهم الآيتين وفى تصور علاقتهما بالسياق **نرجح فى إعراب أولاهما الرأى القائل** بأن الإنسان مبتدأ، وبصيرة خبر، وعلى نفسه متعلق ببصيرة، غير أنا لا نرى ما يراه أصحاب هذا الرأى من أن ثمة مضافًا محذوفًا قبل النفس، والتقدير: على أعمال نفسه، فالتعلق فيما نرى هو تعلق البصر أو البصارة بالنفس ذاتها، **وأما «بصيرة»** فإننا نرجح القول بأن الهاء فيها للمبالغة وكذا القول بأن معناها: شاهد أو مراقب، غير أنا نحس ـ والله أعلم ـ أنها بهذا القول لا تخبر عن شهادة الجوارح على الإنسان يوم القيامة بل عن شهادة هذا الإنسان على خبيئة نفسه فى الدنيا ، أعني مراقبته أو إدراكه اليقينى للحقيقة الماثلة فيها والتى يحاول بمرائه جاهدًا إخفاءها، **وأما «معاذيره»** فإننا نرجح بصددها الرأى القائل بأنها تعنى الستور، ولعل فى الفعل «ألقى» ما يدعم هذا الترجيح؛ إذ إن الإلقاء هو أكثر ملاءمة للستور لا للأعذار، والمراد بالمعاذير ـ بهذا المعنى ـ هو صور مراء هذا الإنسان حول يوم القيامة والتى قد تستر دخيلته وحقيقة ما تنطوى عليه نفسه تجاه هذا اليوم عن الآخرين.

الآيتان الكريمتان فى ضوء ما تقدم ـ إذن ـ تخبران عن أكثر أحوال هذا الإنسان تعرية لمرائه حول حقيقة الآخرة، أعنى حاله عندما يثوب إلى

نفسه فيصبح فى مواجهة صريحة معها لا مع الآخرين، لقد رصدت حال الحسبان غفلته عن مثول هذه الحقيقة التى يمارى حولها فى نفسه، ثم كشفت حال الإرادة عن قلقه أو توتره النفسى بسببها، أما تلك الحال فقد فضحت إدراكه اليقينى لعبثية مرائه حولها، وإحساسه بأن كل صور هذا المراء ليست إلا ستوراً لا تحجب وعيه بها ولا تخدعه ـ وإن حاول بها خداع الآخرين ـ عن إدراكها.

ما سبب مراء هذا الإنسان ـ إذن ـ فى حقيقة تدركها نفسه وتعيها بصيرته؟

إنه حب العاجلة. . . سبب البوار والخسران.

٤ ـ الحب:

﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

لقد انتهى عند هذه الآية الكريمة ـ التى وقعت فى نهاية النصف الأول من السياق ـ خيط الإضراب المفيد فى خطواته الثلاث لمعنى الترقى، وقد اقترن حرف الإضراب فيها كما نرى ـ خلافًا للإضرابين السابقين ـ بأداة الردع والزجر «كلا» ، ولعل هذا وذاك ـ والله أعلم بمراده ـ للإشعار بأن حب هذا الإنسان لعاجلته هو أشد أحواله النفسية خطرًا وأبعدها أثرًا فى ضلال موقفه من الآخرة. . . إنه يعلم ـ فى قرارة نفسه ـ بأن ثمة آخرة (لإدراكه لحقيقة الموت الذي يتخطف الأحياء من حوله من جهة ثم تيقُّنه من حقيقة إحيائه بعد عدم من جهة أخرى)، غير أن علمه بها يظل بسبب حبه للعاجلة عاجزًا سلبيًّا لا يدفعه إلى الاستعداد لها بالأعمال الصالحة ، بل إن هذا الحب ليحفزه على النقيض من ذلك إلى المراء حول حقيقتها ـ غافلاً أو متغافلاً عنها ـ حينًا ، ثم إلى تعجيلها ـ حال تذكرها ـ فى محاولة للروغان أو التخلص منها حينًا آخر. . . وهكذا تظل نفس هذا الإنسان (اللوامة) تتقلب بين أحوالها الثلاث السابقة ، وكأنها فى هذا التقلب تدور فى خط دائرى محوره حب العاجلة.

بقى أن نلاحظ أن الخط التطورى الذي سلكه الإضراب في ترتيب هذه الأحوال الأربع (الحسبان ـ الإرادة ـ العلم أو اليقين ـ الحب) قد واكبه

وتآزر معه خط تطورى موازٍ فى نسق التعبير أو طريقة بناء الجملة، فبينما جاء حال الحسبان في صيغة الاستفهام الإنكارى المناسب لحال الغفلة: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣﴾.

جاءت حال الإرادة فى الإضراب الأول بصيغة المضارع الموائمة بدلالتها على التجدد لمعنى القلق وعدم الاستقرار النفسى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥﴾.

وجاءت الحال الثالثة فى الإضراب الثانى بصيغة الجملة الاسمية الملائمة بدلالتها على الثبوت؛ لثبوت العلم ورسوخ الحقيقة المدركة فى النفس: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾.

أما الحال الرابعة فى الإضراب الأخير «الحب» فقد حدث التحول في مسار السياق عندها ـ كما أسلفنا ـ عن الإفراد والغيبة إلى الجمع والخطاب: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾.

ذلك التحول اللافت إلى عمق تجذر هذا الحب فى نفوس هؤلاء المشركين، ومدى فعاليته فى مرائهم حول يوم القيامة.

والله من وراء القصد.